354 - ـ فصل : وزن الأعمال في الدنيا قبل موازين الآخرة .

تفكرت في نفسي يوما تفكر محقق فحاسبتها قبل أن تحاسب و وزنتها قبل أن توزن فرأيت اللطف الرباني فمنذ الطفولة و إلى الآن أرى لطفا بعد لطف و سترا على قبيح و عفوا عما يوجب عقوبة .

و ما أرى لذلك سكرا إلا باللسان .

و لقد تفكرت في خطايا لو عوقبت ببعضها لهلكت سريعا .

و لو كشف للناس بعضها لاستحييت .

و لا يعتقد معتقد عند سماع هذا أنها من كبائر الذنوب حتى يظن في ما يظن في الفساق .

بل هي ذنوب قبيحة في حق مثلي و وقعت بتأويلات فاسدة .

فصرت إذ دعوت أقول : اللهم بحمدك و سترك علي إغفر لي .

ثم طالبت نفسي بالشكر على ذلك فما وجدته كما ينبغي .

ثم أنا أتقاضى القدر مراداتي و لا أتقاضى نفسي بصبر على مكروه و لا بشكر على نعمة .

فأخذت أنوح على تقصيري في شكر المنعم و كوني أتلذذ بإيراد العلم من غير تحقيق عمل به .

و قد كنت أرجو مقامات الكبار فذهب العمر و ما حصل المقصود .

فوجدت أبا الوفاء بن عقيل قد ناح نحو ما تحت فأعجبتني نياحته فكتبتها ههنا .

قال لنفسه : يا رعناء تقومين الألفاظ ليقال مناظر و ثمرة هذا أن يقال : يا مناظر .

كما يقال للمصارع الفاره .

ضيعت أعز الأشياء و أنفسها عند العقلاء و هي أيام العمر حتى شاع لك بين من يموت غدا اسم مناظر .

ثم ينسى الذاكر و المذكور إذا درست القلوب .

هذا إن تأخر الأمر إلى موتك بل ربما نشأ شاب أفره منك فموهوا له و صار الاسم له .

و العقلاء عن ا تشاغلوا بما ـ إذا انطووا ـ نشرهم و هو العمل بالعلم و النظر الخالص لنفوسهم .

أف لنفسي و قد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم و ما عبق بها فضيلة .

إن نوظرت شمخت و إن نوصحت تعجرفت و إن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم و سقطت عليها الغراب على الجيف .

فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة .

توفر في المخالطة عيوبا تبلي و لا تحتشم نظر الحق إليها .

و إن إنكسر لها غرض تضجرت فإن أمدت لك بالنعم اشتغلت عن المنعم .

أف و ا منى اليوم على وجه الأرض و غدا تحتها .

و ا إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقي و أنا .

بين الأصحاب .

و ا إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني كيف يسترني و أنا أتهتك و يجمعني و أنا أتشتت .

و غدا يقال : مات الحبر العالم الصالح و لو عرفوني حتى معرفتي بنفسي ما دفنوني .

و ا لأنادين على نفسي نداء المكشفين معائب الأعداء .

و لأنوحن نوح الثاكلين للأبناء إذ لا نائح لي ينوح علي لهذه المصائب المتكومة و الخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها و غطاها من علمها .

و ا ما أجد لنفسي خلة أستحسن أن أقول متوسلا بها : اللهم اغفر لي كذا بكذا .

و ا ما ألتفت قط إلا وجدت منه سبحانه برا يكفيني و وقاية تحميني مع تسلط الأعداء .

و لا عرضت حاجة فمددت يدي إلا قضاها هذا فعله معي و هو رب غني عني و هذا فعلي و أنا عبد فقير إليه .

و لا عذر لي فأقول : ما دريت أو سهوت .

و ا لقد خلقني خلقا صحيحا سليما و نور قلبي بالفطنة حتى أن الغائبات و المكتومات تنكشف لفهمي .

فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضى .

وا حرماني لمقامات الرجال الفطناء يا حسرتي على ما فرطت في جنب ا و شماتة العدو بي .

وا خيبة من أحسن الظن بي إذا شهدت الجوارح علي .

وا خذلاني عند إقامة الحجة سخر و ا مني الشيطان و أنا الفطن .

اللهم توبة خالصة من هذه الأقذار و نهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار .

و قد جئتك بعد الخمسين و أنا من خلق المتاع .

و أبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم و ليس لي وسيلة إلا التأسف و الندم .

فو ا ما عصيتك جاهلا بمقادر نعمك و لا ناسيا لما أسلفت من كرمك فاغفر لي سالف فعلي